الفصل الخامس

صفحات من الأوراق الخاصة

الجغرافيا والجغرافيون

الجغرافيا والجغرافيون[أ]

العلم الحائر:

لم يعد أدنى شك أن الجغرافيا تزداد حيرتها في العالم كل يوم أكثر وأكثر، في عصر العلم والتكنولوجيا والمعلوماتية والليزر والأقمار الصناعية.. إلخ.

كل هذه تلقي على الجغرافي أعباء جديدة رهيبة، وهو الذي نا وركع تحت وطأة وثقل أعبائه السابقة! ما العمل؟ كيف ينهض؟ كيف يزحف؟ كيف يمشي؟ كيف يركض؟ كيف يقفز؟

لابد أن يخوض الجغرافي الإلمام بكل التكنيك العلمي الجديد، يأخذ عنه فكرة واضحة، لا ليتحول إلى متخصص فيه، بل مجرد متلصص عليه.. ولكن في نفس الوقت فإن هذا يؤكد أكثر من أي وقت مضى وللمرة الألف بعد المليون أن الجغرافيا فلسفة المكان، فلسفة الأرض، فلسفة العالم، فلسفة الكرة الأرضية لا أكثر ولا أقل – لاستحالة أن تكون غير ذلك. نحن ندعو إلى الحد الأقصى من العلم والعلمية في الجغرافيا لتواكب عصر العلم والتكنولوجيا الفائقة، وفي الوقت نفسه إلى قلب الجغرافيا وموطنه النهائي وهو فلسفة المكان – الحد الأقصى من العلمية مع الحد الأقصى من الفلسفية، وتحقيق ومواءمة هذه الثنائية هي جوهر "فن" الجغرافيا.

***

(أ) انظر د. جمال حمدان، صفحات من أوراقه الخاصة، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٤٨ – ٨٥.

كل يوم يزداد العالم تقلصا وانكماشا بتقاربه وتلاصقه وتوحده – القرية الكوكبية أو الكوكب – القرية، ولكن حجمه وعبئه على الجغرافي يزداد فداحة وضخامة.

ميزة وقوة الجغرافيا، سر المهنة وسر القوة، هو أنها تعتمد على التقسيم المكاني، فالتقسيم المكاني هو "تصنيف في المكان" بلاطات وقوالب وألواح وشقافات (= أقاليم وأشباه أقاليم من مختلف الدرجات والمساحات) تقسم إليها الظاهرة المعطاة أو المدروسة والتي قد تكون عائمة هلامية سايحة فتصبح محددة، واضحة الحدود، واضحة في الذهن، أي تصبح علمية (+ فنية).

أي: قولبة الهلامي، بعد وبدل هلامية التكوين.

***

الجغرافيا = عملية + توزيع.

بعبارة جديدة: الجغرافيا = ميكانيزم + صورة.

الآن الجغرافيا هي التي تقدم الصورة للمتعلم والمثقف أكثر من الميكانيزم الذي هو ألصق بالعلوم الأولية من هنا كان للجغرافيا ميزة حاسمة على علوم كثيرة كالنبات والحيوان والجيولوجيا والميتورولوجيا فهي وحدها التي تقدمها للطالب الثانوي ثم للجامعي غير المتخصص. نحن أفضل موصل جيد للعلوم الأولية إلى غير المتخصص، سواء مبتدئ أو ناضج.

كذلك، لما كان الميكانيزم في العلوم الاجتماعية كالاجتماع والسياسة إلخ ثانوي الدور وأقرب إلى الحدس والعقل الفطري، فإن الجغرافيا تكاد تحتكر الصورة + الميكانيزم في حالتها، تعكس العلوم الطبيعية الذي يظل الميكانيزم فيها خطيرا جدا بالطبع وغاية في ذاته.

***

قد لا تكون الجغرافيا قمة العلوم، ولكنها بالتأكيد قمة الثقافة. الجغرافيا هي أعلى مراحل الثقافة، وهي علم الثقافة الأساسي بدونها أنت غير مثقف مهما فعلت، وبها أنت مثقف مهما قصرت.

لن تكتب في الثقافة العامة جغرافيا بحتة أو صرفة! كلا، ستكون ثقافة عامة مشبعة أو مشعشعة أو مدعمة بالجغرافيا، ترتكز على الجغرافيا ولكنها لا تركز عليها. الجغرافيا فيها أساسي ولكن ليس الصرح بالضرورة الجغرافيا فيه جزء لا كل, باختصار وعندئذ عليك أن تخضع الجغرافيا للثقافة بينما في العلم البحت تخضع الثقافة للجغرافيا.

كما أن الأسلوب الروائي الدميم ليس شرطا للكتابة العلمية، فإن الأسلوب الجميل ليس حكرا على الأدب والكتابة الأدبية، وليس كل كتابة جميلة الأسلوب أدبية أو من الأدب في شيء بالضرورة.

***

لا ينبغي للجغرافي أن يشعر بمركب نقص إزاء العلوم الأخرى التي يأخذ منها، ولكنه أيضا لا ينبغي أن يكون لنفسه مركب عظمة إزاءها فالتوازن النفسي مطلوب كالعلمي.

الجغرافيا هي التسمية المقترحة لـــ geohistoire على غرار الجغراسيا.

إذا كانت العلوم اثنتين: مفيدة ومنورة، فإن الجغرافيا إن تكن أكثر العلوم المنورة بلا نزاع، فإنها ليست بالضرورة أقل العلوم المفيدة إفادة. فهي قد لا تقل فائدة عن الاقتصاد، وبالتأكيد عن الاجتماع أو علم النفس التطبيقي إلخ.

وبالصفة الأولى، فإن الجغرافيا هي قمة علوم الثقافة وعلم الثقافة الأول مثلما سيدة العلوم الاجتماعية غير منازعة وبالصفة الثانية فإنها لا تقل مكانة وجدوى عن العلوم الطبيعية.

[الجدوى العلمية نقصد بها مدى فائدة أي علم للحياة العملية والإنتاج المادي].

***

الجغرافيا علم خالد من الأزل إلى الأبد وخالد لأنه حتمي لا مفر منه ولا بديل عنه.

أزاح الإعلام العلم عن الصدارة، وأصبح العلماء هم برولتارية العالم الجديد الذي خلقوه بعلمهم وتكنولوجيتهم.

***

أمريكا الشمالية من الناحية الجغرافية الضيقة وأقاليم هريرتسن تساوي أوراسيا (أوربا + آسيا) مضغوطة وعلى تصغير، ومع استبعاد قلب أوراسيا القاري جدا. وأقاليم شرق القارة في الحالتين واحدة، وكذلك أقاليم غرب القارات، بل وأيضا أقاليم وسط القارات وخطوط النص متقاربة، والاشتراك في الأقاليم الطبيعية واضح حتى الإقليم الصيني في فلوريدا وحولها، وإقليم المتوسط في كاليفورنيا. وكما تنتهي أوربا عند البحر المتوسط تنتهي أمريكا عند الكاريبي, ولكن يمكن اعتبار أن الهند الموسمية يقابلها مثلث المكسيك وإن بتخفيف نسبي، كما أن جزر الهند الغربية المدارية شبه الاستوائية تقابل جزر الهند الشرقية وإندونيسيا المدارية الاستوائية.

من ناحية أخرى، إفريقيا جنوب الصحراء تساوي وتناظر تماما أمريكا الجنوبية ابتداء من بنما. فالأقاليم الصينية مشتركة ومتناظرة وحتى الشكل المثلثي متقارب ورغم الكورديرا في أمريكا الجنوبية (كما في الشمالية) والتشابه واضح.

ترتب على هذا أننا لو حذفنا الصحراء الكبرى من إفريقيا ولحمناها

بأوروبا في كتلة واحدة، لأصبحت مشابهة ومناطقها تماما لكتلة الأمريكتين تقريبا لا سيما إذا حذفنا أمريكا الوسطى من الأخيرة أي أن:

أوربا + إفريقيا (- الصحراء الكبرى) = الأمريكتين (- أمريكا الوسطى).

لا يبقى سوى استراليا خارج هذا المنظور الكوكبي لخريطة العالم. ولكنها أقرب شيء إلى جنوب أفريقيا حوالي مدار الجدي على تكبير (كلهاري هي صحراء استراليا مصغرة جدا) منها إلى أمريكا الجنوبية.

"خريطة العالم من منظور كوكبي".

The World Map: A Global Perspective.

***

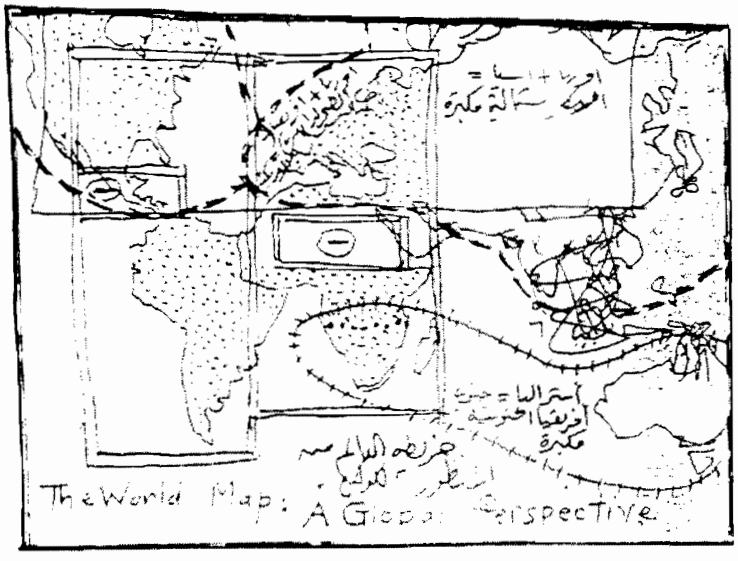

(شكل ٣) خريطة العالم من منظور كوكبي

الأطلس هو كتاب الجغرافيا الأول (والأخير؟) فهو منبع ومصب الجغرافيا جميعا.

من هنا كانت الخريطة هي شفرة الجغرافيا ومفرداتها إنها لغة الجغرافيا بامتياز، الخريطة هي اللغة الجغرافية الأساسية. وهي لغة عالمية غير مكتوبة وإنما مرسومة أو قل إن أبجديتها رسوم وإذا كانت الخريطة هي كلمة الجغرافيا، فإن الأطلس قاموسها.

والجغرافيا هي علم المكان Place Science

نقطة ضعف الجغرافيا القاتلة هي أنها يمكن الحياة بدونها. لن تتوقف الحياة أو تموت البشرية أو ينتهي التاريخ إذا لم تعرف جغرافيا!

هذا هو المقتل وهو جزء من مقتل الثقافة عامة فأنت لن تقوم القيامة إذا لم تكن مثقفا! بل ربما أرجح كنت أسعد وأنجح. [وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم!].

ذو الجغرافيا يشقى في النعيم بعلمه، إلخ إلخ.

الجغرافيا هي كل ما ترى العين خارج البيت أو الجدران out of doors كل ما نراه خارج البيت أي في الطبيعة أو في البيئة أو في الشارع (أي خارج البيت) هو جغرافيا (بحتة!) فكل إنسان، جغرافي أو غير جغرافي، يرى الجغرافيا حيثما كان وأينما تحرك، بل إنه إنما يتحرك "فيها" ولا مهرب له منها البتة "حيثما تكونوا تدرككم الجغرافيا حتى ولو لم تدركوها أنتم"! وكل إنسان على الأرض له خبرة ومعرفة بالجغرافيا سواء أدرك هذا أم لم يدرك. فالجغرافيا علم بصري ابتداء إن لم نقل أساسا، والأعمى وحده للأسف هو الذي يقع خارج الجغرافيا، لا يراها ولا يعرفها أي يدركها وإن هي أدركته طبعا وحتما، هذا يعيد تأكيد أهمية مدرسة اللاندسكيب في الجغرافيا. إنها ليست نافلة أو بدعة، بل ضرورة وجود.

ليس هناك إقليم واحد في المنطقة؛ هناك أقاليم عديدة في الإقليم الواحد نفسه، عدة أقاليم بعدد فصول السنة أو تغيرات الطقس الدورية.

***

ليس المطلوب في الجغرافيا الآن اللوغاريتمات والمعادلات إلخ، ليس المطلوب العلمية بهذا المعنى الدقيق الصارم، إنما المطلوب "الجمالية" الجغرافيا الجميلة، الجغرافيا كعلم جميل وهذا "فن".

وهذا يتسق مع مطلبنا من إلغاء العمل الميداني بمعناه الحالي، وتحويله وقصره على الرؤية اللاندسكابية والفكر المكاني... إلخ.

لماذا؟ لسببين قاتلين: أولا، استحالة وجود؛ أي: تربية الجغرافي الذي يجيد تماما كل الطرق والوسائل المعملية لكل العلوم الطبيعية والاجتماعية، كالإنثروبولوجيا والتشريح، والجيولوجيا وتحليل الصخور والتربة وقياس المناخ الحديث (كله فضائيات الآن!).

حتى التخصص في فرع واحد كالجيولوجيا أو الاقتصاد يستدعي معرفة كاملة بكل تكنيك الجيولوجيا والعلوم الطبيعية، أي تكرر طالب الجيولوجيا أو كلية العلوم بالكامل فحتى هذا مستحيل، ولو فعلته لخرجت من الجغرافيا ولم تعد جغرافيا.

ثانيا – لو فرضنا جدلا الإحاطة الكاملة بتكنيك كل العلوم المعملية التي في الدنيا، فماذا يجدي هذا الجغرافيا نفسها؟ لن نضيف إليها هي جديدا!.

لهذا نعود فنؤكد أن حقيقة الحقائق وقانون الجغرافيا الذي يعلو كل حقيقة وقانون هو أن الجغرافيا هي الجغرفة! عملية تحويل ما ليس جغرافيا إلا ما هو جغرافي.

كل جغرافيا أصولية هي "تكثيف استراتيجي" للفهم الأول الموازي أو المقابل: الجغرافيا التاريخية تكثيف استراتيجي للتاريخ.

الجغرافيا السياسية تكثيف استراتيجي للسياسة.

الجغرافيا الاجتماعية تكثيف استراتيجي لعلم الاجتماع.

وهكذا إلى آخره.

لماذا تكثيف، ولماذا استراتيجي؟

التكثيف، لأنه يأخذ ذلك العلم الأول فيعتصره اعتصارا ويختزله اختزالا ويكثفه إلى حد التضاغط الأقصى، حتى لتصبح الجغرافيا الأصولية بمثابة "ما قل ودل" من العلم الأول الذي أطال فأقل!.

الاستراتيجي، لأن الجغرافيا تنتخب وتلتقط في تكثيفها كل ما هو جوهري وعميق ودال وفاعل في العالم الأول، الحدود دون تواتر والكليات دون الجزئيات، والعموميات دون التفاصيل، اللب دون القشر العمق دون السطح.. إلخ.

إن الجغرافيا علم استراتيجي حيث العلوم الأولية علوم تكتيكية كما قد تقول.

***

تعريف الجغرافيا هو جوهر فلسفة الجغرافيا، بغير التعريف الجامع المانع الواضح القاطع تستحيل الجغرافيا لماذا؟ لأنها علم انتقائي، انتخابي، الحقائق والمعلومات التي تدخله هي اختيار واستبعاد، فعلى أي أساس نختار ونستبعد، إلا على أساس تعريف منهجي حاسم؟

لذا فإن فلسفة الجغرافيا هي أساس علم الجغرافيا. لا جغرافية بلا فلسفة المادة، فلسفة الجغرافيا.

لا جغرافي بغير فلسفة الجغرافيا.

ولا جغرافي ممتاز بغير الجغرافيا الفلسفية.

الجغرافي الكامل:

أنت إما جغرافي مؤبد، جغرافي مدى الحياة، من المهد إلى اللحد، وما أنت إلا جغرافي على الإطلاق، لا وسط بين الجغرافي المطلق، واللاجغرافي على الإطلاق.

فالجغرافيا لا تقبل شريكا قط، لا في العلم ولا في الحياة. أنت محكوم عليك بالجغرافيا إلى الأبد، وإلا خرجت من حوزة الجغرافيا.

بمعنى لن تكون شيئا مذكورا في الجغرافيا، إن لم تتفرغ لها تماما العمر كله. وليس في الجغرافيا شيء كفترة انقطاع تتركها إلى حرفة أو مهنة أخرى ثم تعود إليها، كلا، إنها نقطة اللاعودة، وليس هناك Making a come backe.

الجغرافيا علم استقراء بلا قياس. كل بقعة عليك أن تعرفها بالذات أو لن تعرفها قط لا مكان يمكن أن يكون بديلا عن مكان آخر ولا إقليم عن آخر – فمعرفتك بكاليفورنيا جدا لا تغنيك عن معرفة حوض البحر المتوسط، ولا هذا عن حوض النيل.

برودل: Geohistory/ geohistoize- geo psychology = نظرية الأفرقة والطوالع القومية إلخ. Geososiologye= الجغرافيا الاجتماعية.

وتعريف الجغرافيا بأنها "علم" هو تعريف ناقص، "والجغرافيا العلمية" لا تجعل من الجغرافيا إلا "سندريللا العلوم" كما قيل. ما لم تكن الجغرافيا علما +

فنا + فلسفة، فإنها لا يمكن أن تضيف جديدا ولا أن تؤمن استقلالها وسيادتها العلمية.

والجغرافي بهذا أيضا هو "حاوي العلوم" ليس فقط بمعنى "خزنة أو حافظة" العلوم جميعا وعموما، ولكن أيضا وبلا خجل بمعنى الحاوي الساحر أو الشاطر الذي يتلاعب بالأوراق فيخرج منها ما ليس فيها. وإذا كان فيتمان وغيره يدعون علنا إلى السرقة (الشريفة) من العلوم الأخرى، فإن الجغرافي بهذا ليس فقط "اللص الشريف" ولكن أيضا "الحاوي الشاطر" والساحر الذكي..

الجغرافي الكبير المفكر المخطط الموجه، لا ينبغي أن يتعالى على أو يزدري مدرس الجغرافيا البسيط ثانوي أو أقل – لماذا؟ أولا لأنه تلميذه أصلا، ثانيا لأنه وحده هو الأداة التنفيذية، الجهاز التنفيذي أي أداته التنفيذية المباشرة والمتاحة.

ومع تهمة الموسوعية، سواء صح أو لم يصح أن الجغرافي أغزر العلماء كتابة، فالحقيقة الأهم والأقطع هو أنه أكثر العلماء قراءة. الجغرافي أكبر قارئ في الدنيا. لماذا؟ لأنه لكي يكتب صفحة يقرأ ١٠ صفحات حتما وبالضرورة؛ إنها قمة التكليف، لأنها قمة التكثيف.

وحتى الخريطة الجيولوجية، ينبغي على الجغرافي أن يجغرفها تماما، ولا يأخذها كما هي من صاحبها الجيولوجي، لأنها تخدم أغراضه المختلفة قليلا أو كثيرا عن الجغرافي. مثلا – خريطة مصر الجيولوجية، التي نقلها الجميع عن بول خبط لزق.

***

لا يكون الجغرافي جغرافيا إلا إذا كان فيلسوفا – نظرية.

لا يكون الجغرافيا جغرافيا إلا إذا كان حمار شغل – نظرية أخرى.

النظريتان ليستا متعارضتين، بل متكاملتان.

بالمثل النظرتان: نظرة الطائر المحلق.

نظرة الدودة المحدقة.

التلسكوب + الميكروسكوب.

الماكرو + الميكرو.. إلخ.

***

لا علم بلا جامعة! محال تماما أن يعمل عالم ممتاز بالعلم خارج جامعة (أو مؤسسة شبه جامعية كأكاديمية أو مركز بحوث إلخ).

المهم، لابد للعلم من جامعة ما.

ولكن، للأسف، بمجرد أن يدخل العلم الجامعة يتحول إلى وظيفة، والعلم إلى موظف. أستاذ الجامعة ليس إلا موظف علم!

وبهذا يتحول العلم فجأة إلى تقليد وتقاليد – إلى علم تقليدي.

فالجغرافيا الجامعية الآن جغرافيا تقليدية صرف، جامدة، محنطة شكلية، متخلفة، "وشغل حمير" أساسا.

المثقف:

هو الإنسان الذي يتجاوز دائرة ذاته، ليصل إلى المجتمع الأكبر كله، هو الإنسان القادر على أن يجعل مشاكل الآخرين هموما شخصية له. هو ضمير عصره سابق لعصره في إدراك الخطر المستقبلي والحلم بالمستقبل، هو برج مراقبة للعالم من حوله، يرصد يحلل، يتوقع يتنبأ، يحذر، يخطط، لا يضيع في

التفاصيل وإن تابعها بكل تفصيل، يحول الأشجار إلى نهاية، والتكتيك إلى استراتيجية إنه مفكر استراتيجي كلي شمولي نبؤي.. إلخ.

حسنا، إذا كان هذا هو تعريف المثقف الشائع والأكثر شيوعا وقبولا، فإن لم يكن هو تعريف الجغرافي فماذا يكون؟

إن المثقف الجغرافي هو سيد المثقفين.

وسواء كانت الثقافة هي الأصالة أو المعاصرة والثقافة الجغرافية والجغرافيا الثقافية تضم الاثنين جميعا. فهناك التراث الجغرافي العربي الهائل ولا سدنة ولا خدم ولا حارس أو دارس إلا الجغرافي، ثم هناك جغرافية اليوم وجغرافية الساعة وهي قمة المعاصرة.

كلا، ليست قضية الجغرافيا أن تكون أو لا تكون إنما هي أن تكون فاعلة أو لا تكون، فاعلة أو خاملة، مؤثرة هامة أو غير ذلك.

وليست الجغرافيا "كشكول" العلوم، ولا الجغرافي "مسجل" العلوم، ليست الجغرافيا "سجل علوم" ولا الجغرافي هو "مسجل عموم العلوم"، ليس مسجل توثيقي أو موثق علوم أو أرشيفي بدرجة عالم أو أستاذ كرسي الأرشيف العلمي العام.

الجغرافي الحق الذي جاء ليبقى وخلق ليخلق هو الذي يولد "حيوانا جغرافيا، ويعيش "عبدا جغرافيا"، ويموت "قتيل جغرافيا"!.

مأساة الجغرافيا في الحياة: العمليون يرونها عبئا لا داعي له، والنظريون يرونها عالة عليهم بلا داع! يالضيعة الجغرافيا بين الرجل العملي والأكاديمي النظري!!

نعم، العالم يصبح قرية كبيرة أو صغيرة – ولكن حذار من هيستريا العالمية (لعبة أمريكا والغرب ضد الآخرين خصوصا نحن) – المهم في

الجغرافيا: لن يصبح العالم؛ كذلك "إقليما" جغرافيا واحدا! قط، ستظل الجغرافيا هي الجغرافيا والعالم هو العالم – وما عدا ذلك فسفسطة وفلسفة مفلسة.

الوحدة الجغرافية تقول للعرب.

اعتصموا بحبل الجغرافيا جميعا ولا تفرقوا [كذا].

وظيفة أو وظائف الجغرافيا المفتوحة هي ثلاث: التعليم، التخطيط، الثقافة.

الأول يبيع العلم وإعادة توزيع وتوصيل، أي أنك تتعلم الجغرافيا من غيرك لتعلمها لغيرك – فلا جديد – وهذا هو السائد.

الجغرافيا هو علم اكتساب وتحصيل، وليس علم حدس أو تجريب. فأنت إن لم تعرف نهر الكولورادو فلن تعرفه بالحدس أي التهويم وفي حين تستطيع أن تعرف النفس المريضة أو الزكية أو الفلسفة من خبرة الحياة والآخرين فحسب – تماما كما سيعرفها علم النفس ولكن بدقة أكثر فقط.

الميثودولوجيا[1] والمادة، لابد منها في كل علم. ولكن لا تصل الميثودولوجيا إلى قمة أهميتها وقيمتها في أي علم كما تصل في الجغرافيا.

بدون الميثودولوجي، الجغرافيا تافهة ولا شيء وصاحبها تافه ولا شيء.

أخطر من الفكر الجغرافي، الفعل الجغرافي! Gog. et actin ميشيل فيليبوتو.

ومن تعاسة الجغرافي وقدر الجغرافيا أنها لا ترضى عن أحد من الأخصائيين ولكن أحدا منهم لا يرضى عنها بدورها! لا يعجبها أحد، ولكنها لا تعجب أحدا!

ومن ضيعة الجغرافيا: الفلاسفة ينظرون إليها كعلم، والعلماء ينظرون إليها كفن، والفنانون ينظرون إليها كفلسفة!!

---

(١) معربة وهي في الإنجليزية Methodalgy أي المنهجية أو علم المنهج (الناشر).

كل العلوم الاجتماعية، وخاصة الجغرافيا (والتاريخ) ما لم تكن مطعمة، بل مشبعة، بل حبلى، بالفلسفة أي بالفكر، فإنها تفقد الكثير جدا من قيمتها وجاذبيتها، من جدواها ومن بريقها.

***

مفيد جدا أن يوجد دائما الجغرافي المحترف التقليدي، المدرسي (الجامعي) بكل عيوبه وميزاته، إلى جانب الجغرافي غير التقليدي، الثوري، المجدد، الهادم، هذا مصل مضاد لذاك، والعكس. المطلوب دائما ثورة جغرافية، وهذا يعني توا ثورة على الجغرافي وفي الجغرافيا من أجل "جغرافيا ثورية".

ويبدو أن من الممكن نظريا وواقعا أن الجغرافيا التاريخ والدراسات التاريخية تتقابل عند نقطة معينة يتوحدون فيها في دائرة واحدة.

أليس مما له مغزاه، وأحيانا يدعو إلى السخرية أن بعض أعمال الجغرافيين البشرية الإقليمية تتهم بأنها تاريخ، بينما أن بعض أعمال المؤرخين توصف أو توصم بأنها جغرافيا وجغرافية (مثل بروديل)؟!

أليس هذا دليلا على تداخل وتلاقي العلمين عند نقطة معينة. الواحد يبدأ علم مكان ثم يتوغل في الزمان ويتغلغل، والآخر يبدأ علم زمان ثم يخوض في المكان وينغرس، حتى يصبح الاثنان وجها لوجه على أرض واحدة في لحظة ما؟

فعلاً، المكان هو العنصر الأساسي الوحيد الذي يجمع الأشياء والظاهرات المختلفة جدا ويؤلف بينها وقد يوحدها. المكان، يعني الجغرافيا.

***

كما يميزون في دراسة الفلسفة بين فرعين تاريخ الفلسفة، والنظريات الفلسفية، رغم التداخل الأساسي الأصلي بينهما، فكذلك في الجغرافيا: هناك فرق ويجب أن تكون هناك تفرقة واضحة منهجيا بين تاريخ الجغرافيا، وبين قضايا ومشاكل ونظريات الفكر الجغرافي والمنهج الجغرافي.

قد يعرف الجغرافيون ما يفعلون، ما هم فاعلون، (وإن لم يكن كلهم بالتأكيد – للأسف الشديد!) ولكن اللافت أن كثيرا من غير الجغرافيين من العلماء المختصين في فروع العلوم الاجتماعية وحتى الطبيعية كثيرا ما يتساءلون في صمت وفي قرارة أنفسهم عما يفعل بالضبط هؤلاء الجغرافيون! هم يرونهم على أفضل الأحوال مخلوقات علمية غريبة مثيرة للشك والريبة أكبر منها للاهتمام والأخذ بجدية.

هذا أمر معروف ووضع لا يجوز إنكاره أو تجاهله. وعلى الجغرافيا أن تعترف به وبمشروعيته، ثم عليها بالمقابل أن تتصدى له بالشرح والإقناع وإثبات الذات.

وربما لم تضف الجغرافيا إلى المعرفة الإنسانية حرفا واحدا جيدا تماما من عندها، ولكنها مع ذلك تقدم أفضل وخير وعاء وشكل لتقديم المعرفة الإنسانية للشخص العادي والمواطن العالمي ليس هناك غيرها ولا أفضل منها وعاء لتقديم خلاصة وجماع ما توصلت إليه سائر العلوم من طبيعية واجتماعية للمتعلم العادي والمثقف العام. مثلا لن يصبح كل متعلم في الدنيا متخصصا في النبات أو الحيوان، فإذا لم يعرف شيئا عن الغابة الصنوبرية أو غابة المطر أو الاستبس أو الكنجارو أو الرنة.. إلخ في دراسته الجامعية تحت بند الجغرافيا، فأين ومتى سيعرفها؟ قط لن يعرفها، أي لن يعرف العالم ولا أي شيء عنه.

وعلى هذا فقس مع الجيولوجيا، مع الاقتصاد، مع السياسة، الاجتماع، التاريخ.. إلخ.

إذن، الجغرافيا هي خير موصل جيد للمعرفة الإنسانية، أجود موصل، بل الأوحد، وهذا فضل، لو تعلمون، عظيم.

ولكن هل هذا هو كل فضل الجغرافيا؟

كلا بيقين، فهي خير موصل جيد للمعرفة الإنسانية كحد أدنى، أي عند حدها الأدنى.

أما عند حدها الأعلى، فالجغرافيا مؤصّل جيد للمعرفة الإنسانية، ولكن بمعنى خاص وهذه قصة أخرى.

ما الدنيا إلا مسرح جغرافي كبير!!

على سالم المؤلف المسرحي يقول (!):

"ثبت أن الجغرافيا أقوى من التاريخ، وهي التي صنعت الماضي وستتحكم في المستقبل". ولا تعليق!

النزاعات الأكاديمية والغيرة المهنية من المؤرخين والجغرافيين موجودة دائما (خاصة في فرنسا لأن العلمين كانا يدرسان معا دائما). وبعض المؤرخين لا يخفي ازدراءه العلني للجغرافيا. لا يهم. المهم الآتي:

الجغرافيا أقوى من التاريخ – لا شك.

لماذا؟ لأن الجغرافيا تحكم وتصنع التاريخ.

ولكن التاريخ لا يحكم الجغرافيا ولا يصنعها!

وكعلم ربط بين العلوم، الجغرافيا فعلا علم مفصلي ليس فقط بموقعها وسط العلوم الطبيعية والاجتماعية، ولكن أيضا بربطها بين الظاهرات المختلفة في المكان أفقيا "الإقليم" ورأسيا "الإيكولوجي" مفصلي أفقيا ورأسيا.

مشكلة الجغرافيا هي مشكلة إنسانيتها.. هل هي "إنسانية" هل هي ممكنة إنسانيا.

Humanly Playsicaly

والجغرافيون بالضرورة تلاميذ كل المتخصصين الآخرين ابتداء من الجيولوجيا حتى التاريخ. ولكن ماذا بعد هذه التلمذة أليست إلا "الأستذة" فبعد أن يأخذ الجغرافي عنهم، يصبح في النهاية قائدا وأستاذا لهم.

الأدق والأصح، مع ذلك أن يقال: لا يبدأ الجغرافي وهو بالضبط تلميذ للإخصائي، كما لا ينتهي وهو أستاذ له تماما. وضع خاص في الحالتين.

لا ثقافة بلا جغرافيا. "الجغرافيا والحياة".

لا سياسة بلا جغرافيا. جغرافية الحياة.

لا عمران بلا جغرافيا. الجغرافية الحية.

لا اقتصاد بلا جغرافيا.

***

حتمية الجغرافيا: علم لابد منه, هذا هو الجغرافيا, مهما حاولت فلن تفلت من الجغرافيا، ولن تبيد الجغرافيا، إنها ضرورة علم حتمية بحتة. هذه الحتمية الجغرافية هي طبعا غير الحتم الجغرافي المعهود إياه (والمفترى عليه نسبيا أو نوعا ما) فهي حتمية حميدة.

هل الجغرافيا كشكول العلوم (كشكول الجغرافيا)، بستان العلم (بستان للجغرافيا!).

الجغرافيا في عالم متغير:

هذه إحدى أهم مشكلات الجغرافيا المعاصرة وعليها أن تتصدى لها، وتحلها لكي تعيش "الجغرافيا أو الموت" أم الموت للجغرافيا "تسقط الجغرافيا!" – "عاشت الجغرافيا"!

***

إن الجغرافيا حائرة تدور حول نفسها، تبحث عن دور جديد أو قديم محدد، عن مكان لها تحت الشمس، شمس العلم والعالم الجديد، عن توجه وتوجيه جديد مفيد.

واتجاه الجغرافيا إلى الثقافة العامة مطلب حيوي، مسألة حياة أو موت ولكن هذا وإن كان يعني تبسيط العلم والعلوم، والشعبية Vulgarisation فإن الأمر ليس بهذه البساطة أو السهولة.

التبسيط لا يعني التسطيح فضلا عن التفاهة.

التبسيط ليس سهلا، ولكنه ليس بهذه السهولة أو البساطة.

ولكن الخطر الأكبر الذي يهدد التوجه الثقافي للجغرافيا هو أن تسقط أداة ولوبي للسلطة والحكم كالصحافة – النزاهة العلمية والاستقلال الفكري شرط الثقافة الجغرافية مثلها هي شرط العلم الجغرافي والجغرافيا الأكاديمية.

الجغرافيا أساسا = عملية + توزيع.

Distribuation + process.

شيء غريب فعلا وحقا. موقع الجغرافيا بين العلوم يكاد يشبه موقع مصر بين البلاد!

فهي علم مفصلي يتوسط العلوم، كما أن مصر موقع مركزي مفصلي وسط العالم. الجغرافيا تأخذ من كل العلوم فتصطنع منها عصيرا وكائنا خاصا ولهذا السبب، وبصرف النظر عن التطور التاريخي، كانت الجغرافيا تالية ولاحقة للعلوم كعلم، سابقة لها كتعليم بمعنى أن الجغرافيا تبدأ كعلم بعد وجود العلوم الأولية الأخرى، وبعد أن تتم وتوجد، تصبح هي المدخل الطبيعي للتعليم، ثم تليها العلوم الأولية.

هل الجغرافي الجيد هو الملك ميداس أم نصف إله؟ هل الجغرافيا والجغرافي هي "نمل العلوم" أم "نحل العلوم"؟ هذا يسرق وينقل الطعام ويستهلكه خلسة من تحت أقدام الناس، وهذا يعمل بنشاط مذهل متحركا آلاف المسافات ليجمع الرحيق ويقدم للإنسان؟

هل هو وحي – هما – دودة قطن" أم "دودة قز"؟ هذا مدمر وهذا معمر؟

ولماذا؟ حتى المؤرخون أصبح بعضهم ينظر إلينا باستخفاف واستغراب وتأفف! حتى أنت يا بروتس!

حسنا، قد لا يليق أن نقول إن الجغرافيا تقف على كتفي العلوم الأخرى، لأنها في النهاية تعيش عليها وتأخذ منها، لكن بالمقابل لا يصح أن يقال إن الجغرافيا تقع تحت أقدام العلوم الأخرى.

إنها ليست سيدة العلوم (بالتأكيد) لكنها ليست خادمتها كذلك، ولا سندريلا ما أكثر. فما هي وما موقعها بالضبط؟ فكر!

***

لاحظ أن الصدفة التاريخية هي المقابل والنقيض للحتمية التاريخية.

بالمثل: الحتم الجغرافي × الصدفة الجغرافية.

لا يتحول التاريخ إلى علم إلا بتخصيصه بالجغرافيا وبغير ذلك يظل كائنا عقيما.

المدارس الجغرافية:

هي شبه حقيقية، شبه تاريخية، شبه جغرافية.

السؤال المحير والمحرج ولكن المحقق أو المحك في الجغرافيا هو: هل هذا جغرافيا؟ هل هذه جغرافيا؟ هل هذا جغرافي؟

السؤال مشروع ووارد دائما. والجواب الصح هو هل هذا إقليمي أم لا؟ إن كان إقليميا، فهو جغرافيا، وإلا فلا.

والإقليم مركب لا عنصر.

هناك الإقليم الذي يعتمد على أرض وأمد محدد كالتربة أو المناخ أو السكان.. إلخ هذا الإقليم إقليم عنصر، أو إقليمي أصول، نسبة إلى الجغرافيا الأصولية.

وهناك الإقليم الشامل بالمعنى الكامل أي الذي يضم كل عناصر الجغرافيا الأصولية. هذا هو الإقليم الجغرافي الحق، لنقل "الإقليم الإقليمي" (على وزن النواة النووية – للتأكيد) أو الإقليم الجغرافي.

أو يمكن أن يميز بين الاثنين فتقول الإقليم التحليلي analytical والإقليم التركيبي synthetic والجغرافيا أساسا علم تركيبي أو تخليقي Synthis.

المدارس الجغرافية إذن مدارس وطنية أو قومية وهي بهذا أقرب شيء إلى فكرة "الطوابع القومية" التي هي نسبية جدا جزئية أساسا، وربما سطحية نوعا.

إننا لا نرفض فكرة "المدارس" كلية ومن حيث المبدأ، ولكن نقبلها بتحفظات شديدة وتحديدات صارمة كشيء أكثر من لا شيء ولكن ليس هو كل شيء.

"الجغرافي الكامل" بمعنى الشامل الذي يتخصص ويتبحر في كل مجالات الجغرافيا وفروعها ودوائرها هو فكرة تجريدية بل خزائنه تماما. استحالة مطلقة. هناك تعم، الجغرافيا الكاملة لكن ليس هناك الجغرافي الكامل "الجغرافيا الكاملة" هي مجموع عشرات أو مئات من "الجغرافيين الجزئيين".

سواء لحسن الحظ أو لسوئه الفكر الجغرافي كان دائما وفي كل مراحله مرتبطا بمراحل الفكر العلمي الفلسفي والحياتي العام ومتأثرا به – أيام التطورية تأثر بها، مثلا راتزل والدولة وأيام البيئة والإيكولوجيا تأثر وكان الحكم الجغرافي أيام الماركسية تأثر وكان التخطيط والإقليمية والآن البيئة والتلوث إلخ.

لا جديد، بالضبط تحت شمس الجغرافيا كل القضايا الرئيسية والمشكلات والأساسية والمحاور المحورية والأعمدة الفقرية والمجالات العريضة كل هذا له جذور وأصول قديمة بالغة القدم في الجغرافيا، وعولجت ونوقشت منذ وقت مبكر جدا في بداية العلم ثم تكررت في كل مراحله، لكنها بالطبع تتطور وتتجدد، عمقا وعرضا واتساعا وأصالة وإضافة كالمد والجزر، كالتهبيط والترقيع، كالتسريع والإبطاء، كالبندول وحركته المستمرة المزمنة. إذن جنين وجرثومة الجغرافيا كلها قديمة، مراحل جنينية وجراثيم يعني.

مسألة وجود "مدارس" في الجغرافيا، نقطة خطيرة جدا تستحق التعمق الجغرافيا علم أساسي لا فن أو قبل أن تكون فنا. موضوعية لا شخصية بالطبع معنى المدارس اتجاهات خاصة واهتمامات معينة وتكوين أو تلوين فكري متميز.

ولكن من ناحية أخرى، كل الاهتمامات الأساسية والخطوط العريضة مشتركة بين جميع "المدارس" بالضرورة. والمسألة فروق فردية في الدرجة لا في النوع، في التركيز لا في التخصيص.

معقول أن توجد بين جغرافي البلد الواحد، بسبب وحدة اللغة ولتركز القراءة في إنتاجها، قاسم مشترك ما (أصغر) بين أفرادها، يخلق نوعا من الجو المشترك أو الطقس أو المناخ الاهتمامي والمعلوماتي.. إلخ.

ولكن دون أن يفصلهم ذلك عن العالم الخارجي "والمدارس" الأخرى.

***

الجغرافي أحد اثنين: إما فيلسوف جغرافيا، وإما حمار جغرافيا.

بالمثل المؤرخ، إما فيلسوف تاريخ أو حمار تاريخ.

فعلا، فالجغرافيا في جوهرها هي "فكر في المكان".

المعلومة والفكرة (أو الحقيقة والرأي) هما قطبا المادة العلمية – خاصة في الجغرافيا من المعلومة نستشرف ونستنبط فكرة جديدة لا تلبث بعد أن تستقر أن تصبح بدورها معلومة جديدة. بهذا يتم تراكم المادة، وتتناسل المعلومات والأفكار على التعاقب والتبادل.

***

يجب على الجغرافي أن يضع نفسه داخل وخارج الإقليم في آن واحد: داخله لكي يستنبطه ويسبر أعماقه ودخائله، وخارجه لكي يراه رؤية كلية شاملة وكذلك نظرة موضوعية بحتة مجردة.

***

للأسف كثير من الجغرافيا الجامعية هي مجرد "جغرافية أطفال" فحذار من جغرافية الأطفال؟.

***

الفكر في المكان – في القصص والتطبيق يصبح "الفكر في الطبيعة وعلى الطبيعة" في المكتب والمكتبة يصبح هو "الفكر في الخريطة وعلى الخريطة".

من هو المفكر، وما الفكر؟ كثيرون يوصفون أو يعدون من المفكرين، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة، ولا حتى أنصاف مفكرين.

المفكرون الحقيقيون قلة وكل مفكر مثقف، ولكن ليس كل مثقف مفكرا، تماما كما أن كل مثقف متعلم ولكن ليس كل متعلم مثقفا.

الواقع أن هناك هرما من ثلاث طبقات:

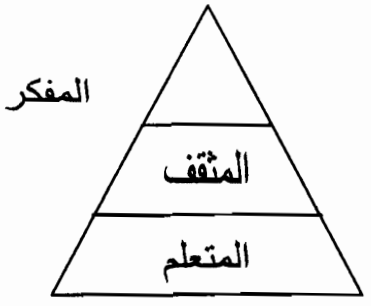

القاعدة العريضة جدا: المتعلمون

الطبقة الوسطى القليلة: المثقفون.

القمة العليا الضيقة جدا: المفكرون.

فما هو المفكر ومن هم المفكرون؟

الفكر مركب من ٣ عناصر:

العلم – الفلسفة – الفن, وكل عنصرين منها وحدهما لا يصنعان مفكرا ولا فكرا.

المعادلة هي: الفكر = العلم × الفلسفة × الفن (بالضرب لا بالجمع، كناية عن التفاعل العضوي الخلاق بين أطراف الثلاثية).

وهذا بالضبط هو الفكر الجغرافي فالجغرافيا فكر أولا وأخيرا. والفكر الجغرافي، كالفكر عموما ولكن أشد وأكثر، هو تفاعل العلم بالفلسفة بالفن.

ومن هنا يأتي التجديد العلمي والإضافة.

والأفكار في الجغرافيا هي الإطار الوحيد والضروري لصب وترتيب المعلومات, وهذا هو الحل الوحيد الحقيقي لمشكلة الجغرافيا الرهيبة، وهي

طوفان الحقائق والمعلومات اللانهائي القاتل مع قلة الأفكار والأنماط الكبرى الرئيسية التي نرصها وننضدها فيها. وبغير هذا تصبح الجغرافيا علما رهيب الحجم، فاقد الهدف – غير هادف. الأفكار هو موجه ومجدد هدف الجغرافيا – البوصلة الجغرافية **الأفكار: بوصلة الجغرافيا, والمعلومات: جسمها وسفينتها. الأفكار: قاطرة الجغرافيا، والمعلومات: قطارها أو مقطورتها!.**

***

التكنولوجيا والعلم المعقد جدا تغزو الجغرافيا كسائر العلوم. وستجعلها أكثر من أي وقت مضى علما مستحيلا، أما عامل الغيط فسيصبح في استحالة رؤية الوجه الآخر من القمر.

ولقد أتت ساعة الحقيقة على الجغرافيا بكل شجاعة وأمانة أن تلقى بخرافة أو مسخ العمل الميداني في البحر ووراء ظهرها وإلى الأبد إنه خداع للناس ولكن الآن في عصر التكنولوجيا والكمبيوتر والليزر والأقمار الصناعية وخرائط الفضاء.. أصبح خداعا قاتلا للنفس.

إنها الجغرافيا لا تنتحر برصاصة العمل الميداني الفاسدة (المغشوشة)!

***

صفات مختلفة للجغرافيا: العلم المستحيل – المجنون – القاتل – القاصم.

بهذا الحجم الرهيب والمجال المخيف، لا يمكن إلا أن يكون نصف الجغرافيا على الأقل أخطاء فاحشة ومروعة!

– يموت الجغرافي الجيد وفي نفسه شيء منها.

– يعيش الجغرافي الرديء وليس في نفسه شيء منها!

***

ولأن الجغرافيا تقف على أكتاف العلوم الأولية كلها، على كتفي العلوم الطبيعية من ناحية والعلوم الاجتماعية من الناحية الأخرى، فإنها يمكن أن تكون أكثر منها قامة وأن تتفوق عليها أكاديميا وفكريا ونظريا والواقع أن الجغرافيا، كما تمثل وحدة الدنيا والعالم كأرض، تمثل أيضا وتماما وحدة المعرفة الإنسانية والعلم كله. هي وحدها وحدة العلم والمعرفة – وكل ما عداها اجتزاء جزئي وفصوص. الجغرافيا يمكن أن تكون قمة العلوم جميعا، قمة المعرفة الإنسانية جمعاء.

هناك مشكلة أصبح من الضروري حسمها، بعيدا عن الجغرافيين من "الباب الخلفي أو الجانبي" أي الذين بدأوا علماء متخصصين في علوم معينة، ثم تحولوا منها إلى الجغرافيا بصورة "رسمية" أي احترفوا الجغرافيا من أول وجديد، فأصبحوا جغرافيين محترفين (محترمين) بكل معنى الكلمة.. وطبعا لا يمكن أن يسموا بعد ذلك جغرافيين "هواة".

هناك ناس يكتبون جغرافيا دون أن يقصدوا أو يدروا ويدركوا، على هامش كتاباتهم وتخصصاتهم أو تضاعيفها. إنهم ليسوا "هواة جغرافيين" لأن الهاوي عاقد قاصد وهم ليسوا عاقدين قاصدين, في نفس الوقت لا يمكن نفيهم تماما من الحوزة الجغرافية، ولا ضمهم إليها طبعا. إنهم "جغرافيون وما هم بجغرافيين".

***

ما ومن الأسبق: الجغرافي أم الكارتوجرافي؟

أولا، وبلا جدال، الجغرافيا شيء مختلف تماما عن الكارتوجرافيا، رغم العلاقة الحميمة جدا والخاصة جدا.

في البدء تأتي الخريطة لكن من الذي صنع الخريطة؟ الكارتوجرافي يقينا. ثم يأتي الجغرافي عند ذلك ليجد الخريطة جاهزة ويقرأها أو يملأها بتوزيعاته وظاهراته وقد ينتج في هذا العمل خرائط جديدة من صنعه وصنع يده وعلمه فهل يعد بذلك كارتوجرافيا؟

الرد قاطع: المعنى أن هناك نوعين من الخرائط: الخرائط الهيكلية، التي تنقل صورة الطبيعة والأرض إلى الورق، وترفع المكان، هي خرائط قاعدية، خرائط الأساس، Outlene maps, base maps يصنعها الكارتوجرافي بكرا ولأول مرة بالرفع والمساحة من الطبيعة قبله لا وجود لها، ولا قبل للجغرافي بها مهما حاول وهي أكيدا ليست عمله أو اختصاصه أو في قدراته.

الخرائط التوزيعية: هذه هي شغل الجغرافي بعد أن يوفر الكارتوجرافي الخرائط الهيكلية السابقة، يبدأ الجغرافي يوزع عليها ويملأ فراغها بالظاهرات الجغرافية المرادة، سكان، مدن، كثافات، تيارات هوائية كارتوجرامات.. إلخ, ولكن هذه ليست خرائط إنشائية بالمعنى البكر، أو إنشائية من الدرجة الثانية أو ثانوية Secondary maps.

بحكم طبيعتها الشمولية وحدودها الرهيبة (أو اللاحدود!) فإن التفاصيل في الجغرافيا تأخذ مكانا ومكانة وقيمة أقل بكثير مما لها في العلوم الأولية لماذا؟ أولا للاستحالة المطلقة في الإلمام بملايين التفاصيل من كل علم: ثانيا، لأنها بهذا الحجم والاتساع يستحيل الإفادة منها جيدا والتعامل معها بفائدة وجدوى ثالثا، خشية أن يفقد الجغرافي نفسه فيها وتضييع الجغرافيا في تيهها.

رابعا وأخير، لأن الجغرافيا تطبيقا علم استراتيجي علم الكليات، التفاصيل الدقيقة مجرد جسر بالنسبة إليها تصل منها إلى أهدافها الكلية والتعميمات الإقليمية والكوكبية إلخ...

التفاصيل إذن هي مجرد وسيلة لا غاية في الجغرافيا وجسر لا هدف.

الجغرافيا لا تكرر العلوم الأولية من أول وجديد كما هي نقلا وسطوا، وإنما "تكرر" هذه العلوم بمعنى: تنقيّها وتعالجها.. إلخ إنه "تكرير" لا تكرار.

الجغرافيا لا تعيد العلوم الأولية في طبعة أو نسخة جديدة، وإنما هي "تعيد إنتاجها وخلقها تخرج منها جديدا، ليست إعادة طبع reprinting ولكن إعادة تحرير reediting.

إذن الجديد الذي تطرحه الجغرافيا وتضيفه إلى وعلى العلوم الأولية هو "الحبكة العلمية"، الوصفة، الخلطة، التركيبة – وذلك هو الجديد وتلك هي الإضافة.

***

الجيوفيزياء = بطن الأرض.

الجيولوجيا = قشرة الأرض [٦ – ٣٠ كم].

الجغرافيا = سطح الأرض (la face de la terre = وجه الأرض حرفيا)

كلمة الجغرافيا في هذا التصنيف تعني وتساوي الجيومورفولوجيا.

كلمة الجغرافيا الطبيعية كسابق قديم للجيومورفولوجيا كانت خطأ، وكان صوابا إسقاطها لأنها تعني، وينبغي أن تخصص فقط، للنصف الطبيعي من علم الجغرافيا جميعا كمقابل للجغرافيا البشرية.

وهذا هو الوضع الآن، وهو سليم تماما.

بتشبيه جسم الإنسان، فإن:

الجغرافيا = البشرة أو القشرة الخارجة.

الجيولوجيا = الأدمة أو القشرة الداخلية.

الجيوفيزيا = باطن الجسم (؟).

ما مكان كلمة فيزيوغرافيا في هذا الهيكل هل هو مجرد تركيب مزجي أو دمغ entraction لكلمتي "جغرافيا طبيعية".

ولكنها في هذه الحالة لا يمكن أن ترادف في الجغرافيا الطبيعية المعنى السليم الحالي وهو مرادف الجغرافيا البشرية.

إذن لا يبقى إلا أنها ترادف الجيومورفولوجيا بالمفهوم الحالي السائد. ولكنها انقرضت نسبيا وأزاحتها كلمة جيومورفولوجية تماما أو تقريبا.

***

الخريطة تقرأ إلى ما لا نهاية، تقرأ عشرات المرات، وكل مرة تكشف جديدا فيها مهما نظر الجغرافي في الخريطة وأمعن النظر وأطاله، فلن يستنفد كل ما فيها. كل نظرة = معلومة أو نظرية جديدة حيث الأولى الهيكلية خريطة أولية Primary الثانية تبدأ من وتؤسس على أساس الأول والجغرافي يبدأ حيث انتهى الكارتوجرافي (لا العكس طبعا).

وهنا، كما في مجالات وفروع الجغرافيا، ورغم العلاقة الحتمية الأزلية بين الجغرافيا والكارتوجرافيا، فإن الجغرافي يأخذ من الغير ليبني جغرافيته حتى الخريطة مستعارة، سلفة مؤقتة من الكارتوجرافي والجغرافي ناقل حتى على مستوى الخريطة نفسها.

الخرائط الهيكلية إذن هي سابقة للجغرافيا والجغرافي Pre- geograply.

والخرائط التوزيعية هي تالية ولاحقة لها Post- cartographic.

لهذا تبدو الجغرافيا بالنسبة إلى العلوم الأولية كالشعر بالنسبة للنثر.. في درجة التكثيف، في الجماليات، حتى في القيمة (فرغم أن الشعر أجمل من النثر عادة، فإن النثر أهم في الحياة جدا!).

الجغرافيا شعر العلم:

الجغرافيا هي شعر العلم الذي نثره العلوم الأولية.

العلم نثرٌ شعره الجغرافيا.

العلوم الأولية نثرٌ شعره الجغرافيا.

الجغرافيا، ذلك العلم المستحيل.

والجغرافي، هذا العالم المجنون!

هل هي محض صدفة أن عبء الجغرافي هو الأطلس الذي يحمل على كتفيه بل داخل رأسه، يستمد اسمه من أطلس إله الجبال الذي يحمل الكرة الأرضية على كتفيه؟

على الجغرافي أن يطيل النظر في الخريطة، يدقق النظر، يعاود النظر، يديم النظر فالخريطة لا تمنح أسرارها ومكوناتها من أول نظرة، بل لمن يعايشها ويعشقها ويراجعها.

الكمال العلمي، أي الكمال في العلم مستحيل، ولكنه في الجغرافيا بالذات أشد ما يكون استحالة الكمال الجغرافي لله وحده – الجغرافي الأعظم!

للآخرين، يبدو الجغرافي ضيفا غريبا من البشر، وفي ذاته، يبدو فعلا أنه كذلك!

***

هندسة المكان Geo- engineering هي الجغرافيا التطبيقية والهندسة الإقليمية regional engineering والجغرافيا الهندسية.

الجغرافيا هي علم المكان، كما أن التاريخ علم الزمان البعض من

المؤرخين يعرف علمه بأنه علم الزمان وليس علم الماضي بالمثل الجغرافيا: ليست علم الأرض بقدر ما هي علم المكان والفارق مفهوم.

الجغرافيا هي كل شيء ولا شيء! هذه نقطة الضعف الكبرى فيها – والقوة أيضا!.

إذا لم تكن الجغرافيا فوق الجميع، فإنها حول الجميع، وإذا لم تكن حول الجميع، فإنها تحت الجميع وفي جميع الحالات فأينما تكونوا تدرككم الجغرافيا!

والجغرافيا ككل علم تتألف من عنصرين:

التحصيل + التفكير.

التحصيل + التأصيل.

ليس هناك جغرافيا جيدة وجغرافيا رديئة؛ ثمة فقط جغرافي جيد وجغرافي رديء.

عملية الجغرافية هي أساسا عملية هندسة، عملية شكل هندسي، وتشكيل هندسي للمادة الخام هي "قص ولصق" إلى حد بعيد، ولكن عملية ألغاز صينية أكثر منها حرفنة (حرفية) + ذكاء علمي.

وحتى الآن، دراستنا لجغرافية مصر لا تزيد على مجرد خدش سطحي.

لا جغرافية حياة بدون جغرافية ميدان.

الجغرافيا الفكرية هي وحدها الجغرافيا الخلاقة Creative Geog.

المطلوب هو جغرافيا فكرية، بعد الفكر الجغرافي جغرافية الفكر، الجغرافيا المفكرة "الجغرافيا الفكرية Thoughtful Geog".

***

السياحة استثمار في البيئة الجغرافية كما أن النقل استثمار في الموقع الجغرافي.

***

الجغرافيا كمادة خام فقط ثقيلة باردة، سامة، كالرصاص!.

فقط حين يسلط عليها شعاع الفكر (الفكر هو شعاع الليزر في خامة رصاص الجغرافيا) تتحول إلى مادة شفافة مشعة صحية.

"المخيلة العلمية" هي أساس كل ابتكار وتجديد وخلق في العلم. هي مفجر الطاقة العقلية والإبداع العلمي (العلم إبداع).

وطبعا، هي شيء غير "الخيال العلمي" وقصصه. فهذا علم، وهذا فن.

***

إذا كان أبرز (وأروع ما في الكرة الأرضية أنها بتنوعها الشديد جدا في كل شيء الناس، المناخ، النبات، البيئات إلخ فإن أهمية هذا التنوع ووعاءه الأساسي هو التنوع الإقليمي، أي تنوع الأقاليم، أو تعدد الأقاليم ببساطة إن تعدد الأقاليم على وجه الأرض، وانقسام سطح الأرض إلى عديد من الأقاليم هو أكبر نعمة على الأرض وعلى الإنسان، ولولاها لكان عالما مملا منفرا إلى حد السخف وفقيرا إلى حد مدقع.

إن في اختلاف أقاليمكم، كما في اختلاف ألوانكم وألسنتكم إلخ، كما في معنى الآية بل إن اختلاف ألوانكم وألسنتكم إنما مرجعه وأصله وجماعه اختلاف أقاليمكم.

***

أقاليمي التي قدمتها في النظائر الجغرافية بين أوربا وآسيا[1]. ليست أقاليم

---

(١) انظر جمال حمدان أوربا وآسيا، دراسة في النظائر الجغرافية، القاهرة ١٩٧٢ (الناشر).

جوفاء ولا صماء. إنها أقاليم هيكلية لا تركيبية، بمعنى أنها أقاليم تناظرية Ararallelism regions، شكلية أكثر منها موضوعية، هندسية أكثر منها جغرافية.

ولكن لأنها أقاليم هندسية Geometrie regions فإنها أكثر الأقاليم الجغرافية جغرافية.

ولكن لأنها أقاليم هندسية Geometrie regions فإنها أكثر الأقاليم الجغرافية جغرافية.

تنصب على الهيكل أكثر مما تصب في محتواه ومضمونه.

***

فكرة أوراسيا تحتاج إلى تعديل. هي تعبير جغرافي يساوي أوربا + آسيا، وذلك باعتبار أن الأولى امتداد أرض واستمرار جيوديزي للثانية.

هناك أيضا التناظر الجغرافي بين النظائر الجغرافية في كلّيتهما.

ولكن:

قد يكون الأصح أن نقصر مفهوم أوراسيا على جانب الجغرافيا البشرية دون الطبيعية هنا يصبح المفهوم وظيفيا وعضوي حقا.

وهنا تصبح المنطقة من شرق أوربا وغرب آسيا فقط هي أوراسيا الجديدة أو أوراسيا الصغرى، أو أوراسيا الفعالة، أو أوراسيا البشرية.

كيف؟ أساسا لأن السكان هنا انتقاليون بين الجنس الأبيض والأصفر، ليسوا أوربيين ١٠٠% ولا آسيويين ١٠٠%.

والواقع أن هذه قارة جنسية حقيقية في قلب العالم القديم – بل إن فكرة القارات الثلاث في العالم القديم إن هي إلا فكرة جيوديزية[1]. بحتة لا تعني من ثم كثيرا من الناحية الفعالة يمكن إعادة تقسيم قارات العالم القديم على النحو الآتي:

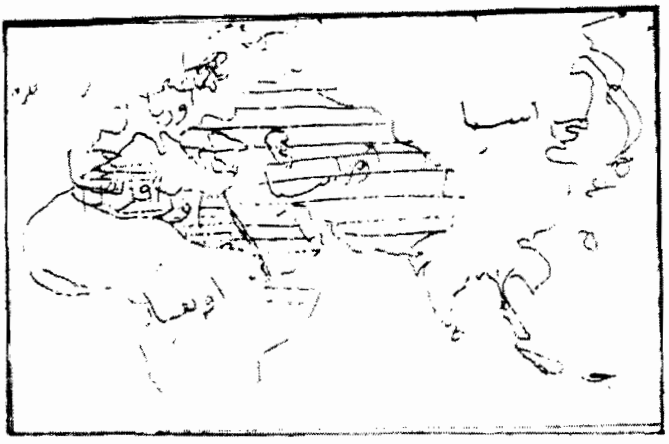

أوراسيا – منطقة اجتماع أوربا وآسيا من سهول آسيا الوسط والتركستان حتى البلقان والمجر، هي ثاني بوتقة جغرافية تاريخية، ولكنها من جنسين اثنين فقط هما الأصفر والأبيض – بينما كانت منطقة الشرق الأوسط الكبير السابقة من(٣) هي أجناس الأبيض والأصفر والأسود.

***

بعد كولمبس وكشف إضافة في العالم الجديد تفجرت أكبر بوتقة في التاريخ مهيمنا: أمريكا + جنوب إفريقيا نسبيا (استراليا لا) وهي سائرة إلى

---

(١) كلمة معربة وهي في الإنجليزية "geodesy"، أي علم هيئة الأرض ومساحتها. (الناشر)

جنس واحد بعد قرون مهما كان، وقريبا سيصبح الملونون أغلبية والبيض أغلبية كما أعلنوا إحصائيا.

آخر وأحدث وأصغر بوتقة هي أوربا قلعة الجنس الأبيض التاريخية الكبرى الآن تنهار بالتسرب والتسلل والجاليات الأجنبية من الجنوب فرنسا هي بروتوتيب أوربا، والباقي على الطريق، إنجلترا، ألمانيا, أسبانيا، إيطاليا. إلخ.

مع الحضارة الحديثة المذهلة بكل مكوناتها وعناصرها والتقارب الجغرافي والتضاغط الجغرافي- قرية كوكبية- ستصبح الأجناس البشرية أشد تلاحما وتداخلا واتصالا ببعض، وذوبانا واختلاطا حتى تنشأ يوما ما جنس سائد في العالم من اللابيض اللاملونين على غرار النمط المصري الفرعوني. ستبقى صورته طبعا لقرون. ولكن ستصبح الاستثناء لا القاعدة ومجرد حفريات تاريخية تذكر بماضي العلم الجغرافي.

إن إنثروبولوجية العالم تتحول من تعدد الأجناس قديما إلى جنس واحد وأحادية الجنس في المستقبل البعيد.

***

للمناخ (الغلاف الجوي) تأثير رهيب على طبيعة الإقليم الجغرافية (بصرف النظر عن الناس تماما).

فالغلاف الجوي يشكل ويعيد تشكيل الغلاف الأرضي كل يوم وكل ساعة ولكن أساسا كل فصل كيف؟ إن الإقليم الواحد (الأرض) يختلف في مظهره والإحساس به في فصل الصيف مثلا عنه في فصل الشتاء الأرض واحدة وثابتة، ولكن الجو متغير، ومعه يتغير مظهر وشكل وجو الأرض نفسها. فمصر صيفا، أرض مصر، وغيرها شتاء.

وقطعة من مصر شتاء قد تبدو كقطعة من إنجلترا مثلا إقليم الفن والبرودز يشبه الدلتا أو الدقهلية شتاء, ولكنهما يختلفان تماما صيفا بينما قد تتشابه دلتا الدقهلية صيفا مع دلتا المسسبي.

إن المناخ يشكل ويعيد تشكيل وجه الأرض ومظهرها وتأثيرها وانطباعها باستمرار وبقوة نادرة.

***

نفكر عادة في الجو باعتباره عنصرا "هوائيا" أي شديد الحركة والتقلب دائما – وبمفهوم المخالفة مع الأرض – أمنا الأرض – بالغة الصلابة والبيئات Restless atmosphere.

لكن الواقع أن الأرض في حالة حركة وانتقاض دائمة لا تنقطع كل يوم تحدث حرفيا ملايين الهزات الأرضية في كل الدنيا ترصد أو تفوق الرصد، ولكننا لا نحس بها قط. إذن الأرض في حركة دائمة باطنيا وسطحيا، ولكن دون خطر بالضرورة دائما! Our Restess Earth.

هناك إذن متوالية تصاعدية من حيث الحركة.

الجو شديد التقلب والحركة.

المحيط والماء متوسط الحركة والتقلب.

الأرض أقل حركة وتقلبا لكنها تتحرك وتتقلب.

***

الجنس البشري يتحول الآن ولأول مرة في التاريخ البشري والبشر إلى "جنس" واحد ووحيد! نعم جنس، الجنس البشري – بعد أجناس..

كيف؟

لقد مر العالم بأربع مراحل من الاختلاط الجنسي والامتزاج والتحاور (الدموي) أو بأربع بوتقات جنسية تاريخية: اثنتان قبل كولمبس والعالم الجديد، واثنتان بعده.

قديما في العصور القديمة: كان الشرق الأوسط الكبير (من إيران حتى المغرب) هو أول وأقدم بوتقة في التاريخ يحكم المواقع الوسطى بين تلاقي القارات الثلاث والأجناس الثلاث متحف موزايكو، بوتقة هذا هو البروتوتيب، الأركتيب والنموذج المصري القديم قمته، وهو الآن بوصلة ومسودة العالم المعاصر والمستقبل.

***

كل البيئات الطبيعية سكانها هم "أبناء الطبيعة" بدرجة متفاوتة إلا المدن وسكان المدن – أيضا بدرجة متفاوتة تاريخيا ثم جغرافيا, فالمدن الحديثة الضخمة مقتطعة من الطبيعة، منفصلة عنها إلى حد بعيد أو بعيد جدا (مع ذلك فسكان الضواحي وهوامش المدينة يقتربون نسبيا من الطبيعة). فالمدينة طبيعة مصطنعة، "طبيعة ثانية".

(حتى سكان الريف هم أبناء الطبيعة، وإن لم يكونوا بدرجة أبناء الصحراء أو الجبال أو الغابات إلخ).

– الرأسمالية هي نهاية التاريخ (فوكوياما) حسنا، هي نهاية التاريخ بمعنى نهاية الإنسان نهاية البشرية. الرأسمالية هي يوم القيامة!.

ومصر المعاصرة انتهت إلى الرأسمالية المسعورة, وهذه هي نهاية التاريخ – نهاية مصر! الرأسمالية كنهاية التاريخ لا تعني إلا أنها "نهاية الجغرافيا"!

كلا، يافوكوياما، وأنصاره: القضية ليست "نهاية التاريخ" بل "نهاية الجغرافيا"!.

إن الأساس القاعدي الدفين وغير المنظور القومية (وإن كان منظورا للعيان) هو العنصر أو الجنس أو العرق.

القومية عنصرية أساسا والجنسية هي الجنس نهاية ولا خداع في هذا ولا خطأ. لماذا؟ إن القومية التي نعرفها ونسميها هكذا اليوم هي بحذافيرها ما كان يسميه ابن خلدون في أيامه العصبية بتاعة العصور الوسطى هي جوهر قومية العصر الحديث.

***

التقسيم التقليدي الثلاثي لكتل قارات العالم القديم يخفي الحقائق الجغرافية ويبرز الشكليات فقط.

إنه تقسيم جيوديزي لا جغرافي وهي "قارات جيوديزية" لا قارات جغرافية.

أما القارات الجغرافية الحقيقية والفعالة في العالم القديم فهي (٥): أوربا، أوراسيا، أورإفريقيا، إفريقيا، آسيا.

***

فكرة تقسم العالم إلى (٣) عوالم رئيسية (الأول، الثاني، الثالث) ليست دقيقة تماما. فالفكرة ليست إقليمية صارمة جامعة مانعة، بقدر ما هي فكرة قطاعات متداخلة بنسب مختلفة أي تركيبة أو توليفية من القطاعات الثلاث بنسب مختلفة.

فالعالم الثالث، موجود في كل من العالمين الأول والثاني، ولكن بنسب قليلة، منها يصل إلى قمته في العالم الثالث. الذي لا يخلو من شرائح من العالمين الأول والثاني (طبقية أو مكانية).

وهكذا العالم الثاني كان (ولا يزال) يضم شرائح من العالم الأول والثالث بنسب مختلفة فكان الاتحاد السوفييتي فعلا مكونا منه.

(٣) نطاقات أو مجالات من العوالم الثلاث.

وهذا كله ما يؤكد أن فكرة الأقاليم البشرية في العالم كله هي أقاليم جغرافية نسبية جدا مختلطة كثيرا، وليست صارمة قاطعة قط. (وهذا طبيعي).

لم تعد في العالم (الديناميكي جدا المتباغض جدا) أقاليم جنسية نقية أو متجانسة كله مختلط تقريبا. حتى أوربا لم تعد بيضاء. وكذلك استراليا بعد سياسة all white Australia.. إلخ.

بينما كان العالم الجديد كله (والآن + كثيرا) ملونا مختلط الأجناس منذ البداية – وقريبا سيصبح أغلبية أمريكا (والولايات المتحدة) من الملونين أو المخلطين!.

إن الجنس الأبيض لا ينقرض في العالم فقط, ولكنه ملون في عقر داره!

***